

الشعر العربي في الهند

أ/ خورشيد إقبال الندوى (*)

لقد تنوعت الأغراض الشعرية عند الشعراء الهنود، سواء أكانت أغراض قديمة ورثوها عن أسلافهم، أم كانت جديدة استمدوها من البيئة المحيطة بهم، أو من ظروف الحياة والتيارات الحديثة، حيث لم يترك شعراء الهند فناً من فنون الشعر أو غرضاً من أغراضه إلا وطرقوا أبوابه، وغاصوا في ضروب الشعر مثل الشعراء في البلاد العربية، حيث نجد لهم قصائد في معظم موضوعات الشعر من مدح غزل ووصف وزهد ورناء وفخر وهجاء... وما إلى ذلك.

وهاك تفصيل ذلك:

أولاً: المدح

يُعدُّ المدح أحد الأغراض الأساس في الشعر العربي، له أهمية كبيرة عند شعراء العرب منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، والمدح في الأصل تعبير عن إعجاب المادح بصفات مثالية، ومزايا إنسانية رفيعة، يتحلى بها شخص من الأشخاص، أو تتجلى في مآثر قوم أو أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب، وأفضل المدح ما صدر من صدق عاطفة وحقيقة واقعة، لا يكتب فيه الشاعر ولا يبالغ، وأجمل المدح ما ابتعد عن تمجيد الامتيازات المادية، وأجود المدح ما أخلص فيه الشاعر لنفسه ولحقيقة ممدوحه ولخير مجتمعه.

وقد تطور فن المدح في عصر النبي ﷺ؛ وذلك لأن الشعراء الذين أسلموا في ذلك العهد تشرفوا برؤية النبي ﷺ وصحبته، فحاول كل منهم أن يعبر عما يدور في وجدانه من مشاعر وإحساس تجاه النبي ﷺ عن طريق قرض الشعر.

وفي الهند كان المديح النبوي أحد أهم الألوان الدينية التي عرفتها عبر عصورها،

(*) ماجستير الآداب - الهند.

والتي ساعد شعراؤها على تعميق معانيها وترسيخ أصولها، كما بلغ المديح النبوى بالهند درجة عالية من الانتشار والازدهار، حتى لا نجد شاعراً إلا له قصائد أو أبيات متفرقات فى مدح الرسول ﷺ، وذلك لما للرسول ﷺ من مكانة واحترام وحب فى قلب كل مسلم، فهم يعبرون عن مشاعرهم وعاطفتهم نحو الرسول ﷺ بصدق وإخلاص، ويصلون عليه مرات ومرات بأسلوب جميل وطراز بديع.

وكذلك نالت مدائح آل البيت نصيباً وافراً من الشعر عند شعراء الشيعة، كما نجد بعض الشعراء يمدحون أولياء الله والشيوخ والأساتذة وكذلك الأمراء والسلاطين، لا لمناصبهم وجاههم، ولا لنيل الجوائز واكتساب الأموال، بل من قبيل المدح للمدح والإعجاب بالشخصية، وبالإضافة إلى ذلك تناول الشعراء الهنود خلال مدائحهم الأماكن المقدسة، مثل: الكعبة المشرفة، والمسجد النبوى، ومدينة النبى ﷺ.

ومن مدائحهم:

يقول أحمد التهانسىرى (ت: ٨٢٠هـ) فى مدح النبى ﷺ:

خل الأحاديث عن ليلى وحارتها	وارحل إلى السيد المختار من إد
وليس فى الدين والدنيا وآخرتى	سوى جناب رسول الله معتمدى
بر رؤوف رحيم سيد سند	سهل الفناء رحيب الباع والصفد
بالعلم مكتنف، بالحلم متصف	باللطف ملتحف، بالبر متسد
بالخلق مشتمل بالرفق مكتحل	بالحق متصل، بالصدق منفرد
العدل سيرته، والفضل طيته	والبذل شيمته فى الوجد والويد ^(١)

ويقول الشاه ولى الله الدهلوى (ت: ١١٨٦هـ):

وأحسن خلق الله خلقاً وخلقة	وأنفعهم للناس عند النوائب
وأجود خلق الله صدراً وناثلاً	وأبسطهم كفاً على كل طالب

(١) نزعة الخواطر: ٣/ ١٠-١١، سبعة المرجان ص ٣٨-٣٩.

وأعظم حر للمعالى نهوضة
ترى أشجع الفرسان لاذ بظهره
ويقول آزاد البلكرامى (ت: ١٢٠٠هـ)
برهان رب العالمين حبيبته
هو نير أسنى الكواكب ساطع
من معشر الإنسان إلا أنه
هو خير من وطئ التراب وخير من
ويقول أحمد رضا خان البريلوى:
وصلاة ربي دائماً وعلى
صلى المجيد على رسوله وفضله
صلى عليك الله يا ملك الورى
صلى عليه الله يا فرد العلى
ويقول القاضى نجم الدين (ت: ١٢٢٩هـ):
محمد أفضل الإنسان قاطبة
له العطاء بلا نقص ولا خفض
ويقول عبد المقتدر الدهلوى (ت: ٧٩١هـ):
محمد خير خلق الله قاطبة
له المزايا بلا نقص ولا شبه
له المكارم وأبهى من نجوم دجى
له الفضائل أجدى من عصا كسرت
له جمال، إذا ما الشمس قد نظرت

إلى المجد سام للعظامم خاطب
إذا احمر بأس فى بئس الموابب^(١)
فى الأمة الأمية العرباء
ملا الأهله كلها بسناء
إنسان عين المجد والعلياء
صعد السماء وخيرة الشرفاء^(٢)
خير البرية سيد الأكوان
ومحبه ومطيمه بحنان
ما غرد القمرى فى الأفنان
ما أطرب الورقاء بالألحان^(٣)
فخر الملائك زين العقل والرسل
له السخاء بأنواع من المثل^(٤)
هو الذى جلّ عن مثل وعن مثل
له العطايا بلا من ولا بدل
له العظامم أمضى من قنا البطل
له الشمائل أحلى من جنى العسل
إليه، قالت: ألا يا ليت ذلك لى

(٢) الديوان الأول، ص ٥-٦ .

(٤)، ص ٥١ .

(١) نزّهة الخواطر ٦/ ٤١١ .

(٣) بساتين الغفران، ص ٨٨ .

ويقول الشيخ محمد على الشيعي (ت: ١١٨٠) في مدح أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه:

وليس عنك سواء العين منصرفا
اسمع كلامي ودع لامية سلفت
فمن أنينى قمام الأيك في طرب
منى الأنين ومنكم يليق بكم
مهما تناشد بالتدعيج والكحل
الشمس طالعة تغنيك عن زحل
قد اقتدى بزفيرى واقتفى رتلى
بذلك جهدى لكم لا بد من بدل^(١)

ويقول السيد ناصر حسين اللكنوي (ت: ١٣٦٠ هـ) في مدح سيدنا على:

وجف الفؤاد بلذع حب معنف
كلف بخالسة القلوب خريدة
فتاكة بنفس أرباب الهوى
قمرء وجها فى تحندس شعرها
من ناحل صب كتيب مدنف
ترنو بلحظ كالصوارم مرهف
عجالة لهم بحتف مزعف
عفرء لونا ذات قد أهيف
إذا أرسلت طيفا ليليل مغضف^(٢)

ويقول فيض أحمد البديوانى (ت: ١٢٧٤ هـ) في مدح الشيخ عبد القادر الجيلانى:

ملك الورى بكماله، وهب الهدى لرجاله
بضياته، ببهائه، بغنائه، ببقائه
برع العوالم كلها ملك المكارم جلها
بلغ الأقصى والأداني رشع بحر فيوضه
سمع العلى لعياله قطر الندى بنواله
بولائه، بوفاته، قسماً بكل خصاله
جمع المحاسن جمعها بجماله وجلاله
أسف على أسف على مبتكر وضلاله

ويقول فيض الحسن السهانبورى فى مدح السلطان عبد الحميد الثانى:

مالى بذى الأرض ومن وال ولا واق
ولا حميم ولا جاد ولا سكن
أثنى عليك ثناء لست أحسنه
نحى الصديق بإكرام يليق بكم
ولا طبيب ولا آس ولا راق
ولا نديم ولا كأس ولا ساق
بذكر ما فيك من سم وترىاق
تردى العدو بإحراق وإغراق^(٣)

(١) الأفراح، ص ١٨٨ .

(٢) نزعة الخواطر ٨ / ٤٨٩ .

(٣) ديوان الفيض، ص ٤٨ - ٥٠ .

ويقول ذو الفقار على الديوبندى (ت: ١٣٢٢هـ) فى مدح السلطان عبد الحميد أيضاً:

يا آل عمشان يا فخر الكرام ويا	خير الأنام لأنتم منتهى أملى
جزاكم ربكم خير الجزاء عن الـ	إسلام إذ قد نصرتم سيد الرسل
أغناكم الله بالنصر المبين لكم	عن الإعانة بالأنصار والخول
سلو سيوفكم والله ناصركم	على الطغاة من الأوغاد والسفل
أبقاكم الله فى عز وفى شرف	وفى علو وفى مجد وفى مجد وفى زعل ^(١)

ويقول أزاد البلكرامى (ت: ١٢٠٠هـ) فى مدح ناصر جنك بن النواب آصف جاه:

هو ناصر الإسلام سلطان الورى	أبقاه فى العيش المخلد ربه
حاز المناقب والمآثر كلها	جبل الوقار يحبنا ونحبه ^(٢)

ويمدح محمد جان البحرى آبادى (ت: ١٢٣٨هـ) الشيخ أحمد السرهندي فيقول:

بركاته عمّت فواقت كل ما	ذرت عليه الشمس من بحر وبر
عم الورى طراً سنا آثاره	قرت لرؤيتها عيون ذوى البصر
كم محدث نيرانه خمدت به	إذ طار من نيرانه شرر وشر
كم من موات القلب نال حياته	من فيضه فزها وراق به النظر
كم جاهل غر أنه لرشده	فالجهل زال برشده وكذا الغر ^(٣)

ويقول المفتى سعد الله (ت: ١٢٩٤هـ) فى مدح النواب كلب على خان

(ت: ١٣٠٤هـ):

بحسن تدبيره العالى وفطنته	ورأيه صائباً أجلى البراهين
من عدله ألف الأسد الظباء كما	عزلانها صرن أولاً السراحين
فلا يرى فتنة فى عهد دولته	غير الذى فيه عيور الحور والعين

(١) نزهة الخواطر ٨/ ١٤١-١٤٣.

(٢) المرجان، ص ١٢٢.

(٣) نزهة الخواطر ٨/ ٤١٦-٤١٧.

طاب المدائح من مد الأمير كما طاب النسائم من روض الرياحين^(١)

ويقول السيد ظهور الحسين في فضل المدينة المنورة:

من لى بطيبة قد طابت أسرتها بالطيب المصطفى والطاهر والزكى
ياترية قد حوت علياء شامخة ما أن ينال ذراها فرع أفلاك
طاب الثرى منك لم يبلغ تأرجه فرح العبير وأين المسك من ذاك
فيك النبى لقد جلت مراتبه ذلت لرتبته أعناق أملاك

بعد استعراض نماذج من المدائح لدى الشعراء الهنود، نجد أن المدائح النبوية كانت مقصداً عظيماً لمعظم الشعراء الهنود، حيث يبدأون القصيدة بالصلاة على النبى ﷺ، ثم يأتون بعدها على فضائله ومكارمه ومكانته بين الأنبياء، ثم يذكرون معجزاته خاصة الإسراء والمعراج، كما يذكرون بعضهم جوده وسخاوته وشجاعته، ومنهم من يظهر التشوق إلى زيارة قبره ومسجده، ويختمون المدحة فى الغالب بالاعتذار إلى الرسول ﷺ عن التقصير فى مدحه، وعدم الإحاطة بشمائله ومناقبه أو بالصلاة والسلام عليه، ومنهم من يطلب التشفع منه يوم الحساب.

وأما مدح الحكام والأئمة وأولياء الله الصالحين، فقد تجسست فيها روح المبالغة والغلو، حتى جعل البعض مدوحه إنساناً فوق الخيال والتصور.

ثانياً: الغزل

يطلق الغزل على نوع من الأشعار موضوعه الحب والهيام، يذكر فيه المحبوب والخمر والكأس، وكذلك صفات المعشوقة وجمالها، وقامتها وطول ليالى الفراق وشدائده وقصر ليالى الوصل وعوائده، وإسالة العبرات وشكوى الصبايات وما إلى ذلك.

والغزل عامة يصدر عن حب عميق، يعتمد على المعانى الروحية أو الحسية، ويعبر عما يختلج فى نفس العاشق من تباريح الهوى، وما يعرض له فى حبه من أحداث ومفاجآت.

(١) انتخاب ياركاد ٢/ ٣-٤.

وله ثلاثة أنواع:

١- الغزل التقليدى: هو ما يفتح به قصائد المدح والهجاء والرثاء أحياناً، كما نطالع فى قصيدة جرير التى هجا بها الأخطل، حيث قال فى مطلعها:

بان الليط ولو طوعت ما بانا	وقطعوا من حبال الوصل أفراناً
يا أم عمرو جزاك الله صالحة	ردى على فؤادى كالذى كانا
لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى	لا أستطيع لهذا الحب كتماناً
لا بارك الله فى الدنيا إذا قطعت	أسباب دنياك من أسباب دنيانا

٢- الغزل الإباحى (الصريح): هو الغزل الذى يتسم بالمجون والعبث، ويقص ذكريات هجر المحبوبة ووصالها فى كذب وفُحش.

ومن أهم صفات الغزل الإباحى: عدم الوفاء لحبيبة واحدة، واستباحة وصف مفاتن الجسد، وسرد المغامرات الفاضحة للقاء المعشوقة والاختلاء بها.

وقد نشأ هذا اللون من الغزل فى أشهر مدن الحجاز بين المغنيين والمغنيات، ومن أشهر شعرائه: الأحوص بن محمد الأنصارى، وعمر بن أبى ربيعة القرشى.

يقول عمر واصفاً ملاقاتها له وما دار بينهما من حوار:

فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى	ألم تتق الأعداء والليل مقمر
وقلن أهذا دأبك الدهر سادرا	أما تستحى أو ترعوى أو تفكر؟
إذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا	لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

٣- الغزل العذرى: هو حديث الشاعر عن المرأة يتسم بالعفة فى القول، والإخلاص فى الحب، يصف فيه جمالها وحسن حديثها، دون خدش حياتها أو الكذب عليها، ويدور حول محبوبة واحدة.

نشأ هذا اللون ببادية الحجاز فى بنى عذرة وخزاعة بين الشباب الذين أثروا حياة البادية، فكان غزلهم نزيهاً عن الفحش بعيداً عما يخدش حياة الفتاة البدوية.

ومن أبرز شعراء الغزل العذري: جميل بن معمر صاحب بثينة، وقيس بن معاذ (مجنون) صاحب ليلي، وقيس بن ذريح صاحب لبنى، وعروة بن حزام صاحب عفراء، والشاعرة ليلى الأخيلية صاحبة توبة بن حمير.

يقول جميل:

يقولون جاهداً يا جميل بغزوة	وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة	وكل قتيل بينهن شهيد
ومن كان فى حب بثينة يمتري	فبرقاء ذى ضال على شهيد

وإذا نظرنا إلى دواوين الهنود، وجدنا أنهم عنوا بالغزل عناية فائقة، باعتباره نوعاً مهماً من أنواع الشعر، يسير به حسن تخيل قائله وتفوق مناله ورقة طبعه.

وهاك بعض النماذج من غزلهم:

يقول أحمد حسن القنوجي (ت: ١٢٧٧هـ):

فديتك يا نعم الصبا خير مقدم	فكل حمام حين أقبلت رحبا
تحاكي لك الأغصان بالوجد راقصا	تضاحى لك الأطياف بالسجع مطربا
تنفخ فى الأشجار روحاً غليها	فيالك ما أزهاك صنعاً وأعجبا
هل جئت من تلك الربا برسالة	فإن الصبا نعم الرسول لمن صبا

ويقول عبد الغفور الدانا بورى:

بانت سليمة فما شئ يسلينا	ولوعة البين يشوينا ويصلينا
قامت تودعنى والهجر يمنعها	وقمت عانقتها والحزن يبكيها
القلب ملتهب والعين ذارفة	وشب نار الهوى والدمع يروينا
غيداء فاتنة هيفاء ناعمة	تحكى نسيم الصبا أعضاؤها لنا
شمس إذا طلعت برق إذا برزت	فتانة بسهام العين ترمينا
خود غدائرها طالت إلى قدم	والفرع يحكى سواداً من ليالينا

ماذا جنينا وليس الحب معصية بأى ذنب هداك تقلينا
مالت إلينا فولدت بعد ما ركنت صدت فسلت لنا سيفًا وسكيناً^(١)

ويقول فضل حق بن فضل إمام (ت: ١٢٧٨هـ):

فؤادى هائم والدمع هام وسهدى دائم والجفن دام
ودمع بل دم صرف جرى من يناطى ساجمًا أى انسجام
وطرف أرمـد يؤذيه غمض وليل سرمد ساجى الظلام
طويل لا يقـاس به ظلام فساعته كشهر بل كعام
كأن كواكب الجوزاء نيـطت بأجفان دوام بالدوام
حمامى حاضر والوجد باد وجسمى ذابل والشاق نام
سرى فى الغرام فصار غرما وذاك الغرم من أدهى الغرام^(٢)

ويقول السيد ناصر حسين اللكنوى (ت: ١٣١٣هـ):

مالى أرى ليلة حفت بأنوار كأنها بضياها ذات أقمار
أتلـك ليلة ليلى إذا رأـت قمرا فصيرته بدوراً عند أنظار
خود حصان مصان شخصها أبدا وضوء غرتها تبريق أبصار
باتت لوامعها حتى بها ائتلفت أنجاد أرض حماها بعد أغوار
لا يعرف الحى ممشاها وإن جهدوا إلا بطيب شذاها الفاتح السارى^(٣)

ويقول آزاد البلكرمي (ت: ١٢٠٠هـ):

أرخى على الستر ليل داج يا شمس ابن كرامة الإبلـاج
شمس التى حلت ببرج حياؤها لا ربة الجـولان فى الأبراج
لا غرو إن شغف العلام بحبها إن الفراش لمغرم بسراج
يا أيها الحذاق فى طب الهوى أبقاكم الرحمن أين علاجى

(١) نزهة الخواطر ٨/ ٢٧٢.

(٢) نزهة الخواطر ٨/ ٤٨٩.

(٣) الثقافة الإسلامية، ص ٥٢، نزهة الخواطر ٨/ ٤٨٩.

ما لان قط فؤادها بلجاجتى ويلين الحجر الأصم لحاجى
ميلان قلب سعاد نحو فؤادنا ميل الحجير إلى رقيق زجاكى

ويقول السيد طفيل محمد الحسينى (ت: ١٢٣٤هـ):

قلنا له عينك النجلاء باخلة فيها الرنو إلى العشاق مفقود
فقال العين قد جاءت مؤنثة وفى الإناث طريق البخل محمود

ويقول عبد الرحمن الغاز بيورى (ت: ١٣٣٤هـ):

العشق أمر لو أبوح بسره تالله لم يك فى الدنيا مريح
شمس بها شمس السماء مضيئة مسك إذا مرت عليك تفوح
لا عيب فيها غير أن فؤادها إذ قيل جودى بالوصال شحيج
يا ويلتى ما فزت قط بمقصدى بل مسنى من قطعة التبريح
فالآن لا نفس اشغلى بثناء من ذاكره للقلب الحزين مريح

من المعروف أن معظم الشعراء الهنود كانوا علماء؛ ولذا لا يمكن أن يخرج نسيبهم من ذلك النوع الذى يعرف فى الأدب العربى بالغزل العذرى متمثلاً فى الحب الطاهر، والذى يقوم على تهذيب النفس ورقة المشاعر والسمو بالأحاسيس وغيرها، مما يدعو إليه الإسلام والإنسانية من القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة؛ لأن التعبير عن الحب العفيف وتصوير النسيب الطاهر أمر أصيل فى الطباع السليمة والمستقيمة، يتفق مع فطرة الله التى فطر الناس عليها، ويتلاءم مع القيم الإسلامية والوجدان الروحى بما لا يخدش الحياء ولا يجرح المشاعر، ولا يدعو إلى الحرج أو الضيق، ولا يتنافى مع العواطف الإنسانية الراقية المهيبة وغير ذلك مما يتناقض مع الغزل الهابط والنسيب الفاضح والتشبيب المكشوف والعبث الماجن.

من هنا نجد شعراءنا لا يستخدمون ألفاظاً وصوراً تخدش الكرامة، وتنال العرض وتحط من الشرف والعفة مما ينهى عنه الإسلام، وتآباه النفوس الأدبية، وتنفر منه الإنسانية المهيبة بل

كانوا بعيدين كل البعد عن ألقاظ القبح وكشف العورات والسواقط وأساليب التهتك والاستهتار، وهو ما يمكن أن يعبر عنه بـ "نحوى الحب".

ثانياً: الوصف والتأمل في الطبيعة:

إن فن الوصف قديم درج عليه الشاعر العربي منذ أقدم العصور، حين وصف الشعراء الجاهليون صحراءهم الجافة وكثبانهم الرملية وشمسهم الحارقة، وحيواناتهم التى كانت تحيط بهم، إلا أن أوصافهم لم تتعدى مرتبة التصوير العيى والتشابه الحسية والمعنوية.

ثم جاء شعراء العصرين الأموى والعباسى ومن بعدهم شعراء الأندلس، وتأثروا بمناخات الحضارة والعمران، فتطور فن الوصف على أيديهم، وارتقى إلى مراتب عالية من الصياغة الوجدانية العميقة، ومن سطوع التعبير الفنى، نلاحظ ذلك بوضوح فى شعر أبى نواس وأبى تمام وابن الرومى والمتنبى وسواهم ممن بلغ الوصف على لسانهم مرتبة الروعة، مضموناً إنسانياً ذاتياً، وشكلاً أسلوبياً يناغم محتواه، وينسجم مع أغراضه، قياساً على وصف الشعراء الجاهليين، ومن دار فى فلكهم من شعراء الطبع والبدواة.

هذا، وإن النظر فى هذا الكون الفسيح بعوالمه المختلفة والمتعددة أمر يجعله القرآن ويحضر عليه، وإن إمعان النظر فى حديقة أو شجرة أو زهرة أو طائر، وكذلك فى القمر والشمس يفتح آفاقاً رحبة وأفكاراً جديدة، بل هذا راقد من روافد تربية الأذواق وتهذيب الطباع على نحو يجعلها ذات ملكة جمالية تمج القبح وتنفر منه، وتأنس للجميل وتميل إليه.

وإذا يممنا صوب الشعر الهندى، فإننا نلمس فيه هذه التأملات الرائقة والنظر الدافق نحو مظاهر هذه الطبيعة، وما ذلك إلا لارتباطه ارتباطاً وثيقاً بكل نواحي الحياة ومشاهد الجمال، فنرى الربيع بسمته المعروف وأثره البالغ، كما نجدهم يصفون الرياض وأنوارها، والحدائق وأزهارها، والطبيعة ومناظرها.

وها هى النماذج:

يصف فضل حق بن فضل إمام (ت: ١٢٧٨هـ) الأعضاء وصفًا حسيًا فيقول:

سقاني مداما بالرضاب مشعشا	يدومه بالريق حين يسور
لثمت فجازى والتزمت فضمنى	به وكلانا هائم، وسكور
فبتنا كما شئنا ضجيعى محبة	وطوع هوانا بهجة وسرور
وباتت يدمنى وشاحًا للكشحه	وما ثم فينا كاشح وختور
إذا عبرت عن لوعتى عبرة جرت	جرى فجرى من عارضيه عبير ^(١)

ويصف آزاد البلكرامى (ت: ١٢٠٠هـ) أعضاء العشيقه فيقول فى الحاجب:

أبصر حواجبها وأدررك كنهها	غصنان منحنيان وسط البان
أو كافران يشاوران ليوقعا	آمالنا فى موقع الحرمان

ويصف فيض الحسن السهار بنورى (ت: ١٣٠٤هـ) حاله، فيعبر عن مشاعره بصدق

واضح فيقول:

أنا مـدنف منـهـوك	أنا بائس صـمـلوك
لكن فى قلبى غنى	لم يحظ منه ملوك
فلن ترانى باكـيـا	إذا تعبنى ضـحـوك
واها لمن هو تارك	وكم امرئ متـروك
قد كان لى ما كان إذ	كان الشاب يحـوك ^(١)

ويصف الشيخ عبد العزيز الدهلوى (ت: ١٢٣٩هـ) مدينة دهلى قائلاً:

يامن يسائل عن دهلى ورفعتها	على البلاد وما حازته من شرف
إن البلاد إماء وهى سيـدة	لأنها درة والكل كالصـدف
فاقت بلاد الورى عزاً ومنقبة	غير الحجاز وغير القدس والنـجف

(١) مجموعة فضل حق، ص ٤٦-٤٧.

(٢) ديوان الفيض، ص ٥٠.

سكانها هم جمال الأرض قاطبة خلقًا وخلقًا بلا عجب ولا صلف
لا غرو إن زينت الدنيا بزيتها كم من أدعلا بابن ذوى شرف
وماء جون^(١) جرى من تحتها فحكى أنهار خلد جرت من أسفل القرف

ووصف السيد يوسف الواسطى (ت: ١١٧٢ هـ) بستانًا فقال:

لاحت لنا روضة راقية مباسمها وعارضت فى سنا برق البعائل
فلا تخل، تلك أوراد بسمن لها وهن المصابيح فى حمر القناديل
ووصف السيد حسن اللكنوى "الربيع" الذى يخضر المراتع ويريح الأسماك والأنظار
ويفرح الطباع قائلاً:

جاء الربيع بأسمد الأحيان فأزاح على جملة الأحزان
قد أشربت فى الروض ماء نظارة شجراتها المهزولة الأغصان
صارت كأمثال العرائس بهجة تحكى ملابسها ثياب جنان
قد صار معتدلاً مزاج نسيمها فجنوبها وشمالها سيان

وقال أدزاد واصفًا الربيع:

أدرك علينا لقاء منك يكفيه وطرفك الناعس المراض يشفيه
كتمت دائى عن العزال مجتهداً ما كنت أدري نهول الجسم يشفيه

ويصف المفتى محمد عباس التستري (ت: ١٣٠٦ هـ) الطبيعة فيقول:

وإن شمت أفقًا برقًا ودقا تخيلت فيها جيادًا عتاقا
عرقن من الجرى فانصب قطر ترقرقهن على الدرفاقا
ومهما تهب على الباغ ريح أدار الرياحين كأسًا دهاقا

(١) نهر من الأنهار الكبيرة فى الهند تسمى "جمنا".

ويصف باقر آگاه بعض الأزهار الهندية فيقول في زهرة "صبا":
 أيا سائلاً عن زهرة صبا فإنه غدا ريحه روحاً وروحاً لنا شق
 تلاقى به حسن وحشق كلاهما له نضرة المعشوق في وجه عاشق

من كل ما تقدم ندرك أن للطبيعة ميداناً عريضاً في فن الوصف الشعري، فقد كانت منبعاً غنياً لاستخراج الصور والتشبيهات، وأفقاً رحباً لتحليق الخيال، ومصدراً مهماً للاستلهام والاستيحاء، فاستحوذت بفضل الله على حواس الشعراء وأذواقهم، وتسربت ألفاظها وتعابيرها وألوانها إلى الفنون الشعرية الأخرى.

إن شعراء بلدنا عنوا وصف أشياء عديدة، ولم يقتصر فنهم على الطبيعة بما فيها من مظاهر فحسب، بل تجاوز إلى غيرها من موجودات، ولم يتركوا شيئاً أثار فيهم إعجاباً أو خلق اندهاشاً، أو هز شعوراً، إلا قالوا فيه، فقد وصفوا الرياض بما فيها من أزهار، والبساتين بما فيها من أشجار وأثمار، والمدن بما فيها من حدائق وقصور وأسواق وشوارع، كما وصفوا الأنهار والجبال والأمطار والمواسم إلى ما هناك من موضوعات كثيرة صادفتهم في حياتهم أو آلت بمجالسهم أو طرأت على ظروف حياتهم.

والبعاء: الرثاء

الرثاء هو ذكر مناقب الميت والبقاء عليه، وهو من أهم أغراض الشعر العربي، يعبر الشاعر فيه عن مشاعر الحزن واللوعة، التي تنتابه لغياب عزيز فجع بفقده، أو لكارثة تنزل بأمة أو شعب أو دولة، والعاطفة فيه أصدق منها في المدح لإخلاص الشعراء لمن يرثونه، وصدور رثائهم عن الطبع وفاء لمن ذكروا لا طمعاً في نوالهم.

والحديث عن الرثاء أشبه بالحديث المعاد لا يكاد شاعر فيه يختلف عن الآخر، وكلما كان الشاعر مثيراً للأشجان موقظاً للأسى مضاعفاً للحزن، كان ناجحاً في الوصول إلى غرضه من الرثاء، ويحتفظ لنا ديوان الشعر العربي على مختلف عصوره بمراث تُعد من أجمل ما قيل في الشعر، تتردد فيها صولة الموت، وسلطان الفناء، وتتضمن أبياتاً حكيمة

تدعوا إلى الاعتبار والزهد، كما تتضمن الإشادة بمآثر المرثى، وفداحة المصيبة.
وبالنظر إلى أهمية هذا الفن عند الشعراء، نجد شعراءنا يهتمون به كذلك، ويجعلونه
غرضاً من أغراضهم الشعرية.
وهاك النماذج:

يقول فضل حق بن فضل إمام في رثاء صديقه الحميم محمد فيض الله خان المقتول
ظلمًا:

علا زفيرى ودمع العين ينحدر	وبلنى الدمع والأحشاء تستعر
مالى أوارى وهو مستعر	بين الحشاد وما النيران تستتر
مالى أرى الليل لا ينجاب ظلمه	كأنما ظل فيها الشمس والقمر
كأن ليلى بيوم الفصل متصل	فما له دونه صبح ولا سحر ^(١)

ويقول فيض الحسن (ت: ١٣٠٤هـ) في رثاء مولوى كل محمد:

نبكى ونذكر سرّاً أو علانية	ما كنت تعطى بإعلان وأسرار
الدمع منسجم والقلب مضطرم	فنحن مذمت بين الماء والنار
أرثيه حبّاً على حب ويشهد لى	همى وغمى وتذكارى وأشعارى
شقت ما كان من ثوب على فيها	أنى أنا اليوم لا كأس ولا عار
أبكى عليه طويلاً حين أذكره	ولا أبالنى بإقلال وإكثار ^(٢)

ويرثى آزاد البلكرامى فيقول:

برق أضواء من الزوراء يشجبنى	يارب ماله يبكى ويبكىنى
أنى لسان يؤدى شكر أنعمه	بالماء والنار يروينى ويورينى

(١) مجموعة فضل حق ص ١١٩ .

(٢) ديوان الفيض، ص ٦٤-٦٥ .

لا يذهب الغل ماء المزن من كبدي
 إنني لشمع قبيل الصبح محتضر
 تبكى وتذكرني الوفاة فهل
 بل ماء ياقوتة اللمياء يرويني
 ما سرعة الأجل الموعود تبقيني
 بكاؤها بعد ما ثويت يجديني^(١)

ورثي فيض الحسن السهانبوري أستاذه فضل حق الخير آبادي فقال:

عمى دار سلمى فأسلمى ثمة اسلمى
 سقاك غواد ما بقيت هواطل
 عافك البلى حتى نكرناك بعد ما
 كأن لم يكن عهد لنا بك سابقا
 فياك من دار عفتها روامس
 نقضن عهداً لى عليها شواهد
 وإن لم تحيريني وإن لم تكلمى
 وآخر دعوانا أنعمى ثمة العمى
 عرفت ولم نعرفك قبل التوهم
 ولم نك يوماً فيك نلهو ونرعى
 ولو كان فيها أهلها لم تهدم
 فرحن فمن يرثي لصب متيم^(٢)

ويرثي السيد يوسف (ت: ١١٧٢هـ) جده قائلاً:

يا للإمام الذى جلّت مناقبه
 أعطاه رب الورى فى الكف توسعة
 أجد بنيان مجد دارس الرسم
 وزاده بسطة فى العلم والجسم

ونظم عبد الحميد الصاد قبورى (ت: ١٣٢٣هـ) قصيدة طولة يرثي فيها حالة المسلمين

قائلاً:
 فوا أسفا ونجن بنو كرام
 ذوى الأعلام والأقلام طرا
 وقد كانوا ملاذ الناس طرا
 وتخضع عند رؤيتهم رقاب
 فصـرنا نحن وهن وهون
 توارث فيهم علم وجود يزينهم
 المكارم والجنود
 لكل مصيبة خصوا ونودوا
 وترتعد الهزابر والفهود
 يرق لنا المعاند والحسود^(٣)

(١) نزعة الخواطر ٦/ ٢٠٥.

(٢) ديوان الفيض، ص ٦٤-٦٥.

(٣) نزعة الخواطر ٨/ ٢٣٠، الثقافة الإسلامية، ص ٥١.

كما نظم وحيد الدين الحيدر آبادى (ت: ١٣٤٤هـ) قصيدة فى رثاء الأمة الإسلامية قال فيها:

هل من سبيل إلى وصل الألى بانوا	بينى وبينهم بيد وقيعان
أو للزمان رجوع بالوصل إذا	كانت له كالرحى فى الدور أحيان
أو للدموع وقود وهى جارية	تدمى شئون أراققتها وأجفان
من لى بشوقهم ما يدل إلى	أرض بهالى أوطار وأوطان
بيض كواعب مذ شدت ركائبها	قلبى إليهن مشتاق وحنان
عنى تفيض على صدر به حرق	حباً لتجمع أمواه ونيران
قلبى به ألم كالنار مضطرم	والدمع منسجم والجفن ملآن
مالى أرى زمناً بالشر يحزننى	وظل يلقف قومى وهو ثعبان
أين الألى أدركوا بالسعى من رتب	ما لا يسامته بدر، وكيوان
أين الألى رتقوا فتق الورى وحموا	دينناً به نسخت فى الدنيا أديان ^(١)

يبدو مما سبق من أبيات وقصائد فى موضوع الرثاء أن شعراءنا لم يقرضوا هذا النوع من الشعر، باعتباره فناً من فنون الشعر أو غرضاً من أغراضه، أو ليعترف الناس بفضلهم وعلو كعبهم فى جميع ضروب الشعر، ولكنهم رثوا أولئك الذين أحبوهم، وحزنوا على فراقهم، ويكوا على موتهم، كما تألموا وحزنوا على ما وصل إليه حال الأمة الإسلامية، وما نزلت بها من أحداث ومفاجآت، ولذا نجد مرثيتهم تعبر عن صدق؛ لأنها صدرت عن قلوب حزينة، وأكباد محترقة، ومشاعر مكلومة.

خامساً: الزهد والوعظ

ازدهر هذا النوع من الشعر بشتى صنوفه وألوانه منذ زمن بعيد، وكان من أسمى الأغراض الأدبية عند شعراء الصوفية، بل يعد أهم الأغراض عندهم، ومن أشهر من قرضوا

(١) المنتخب من الشعر العربى، ص ٣٤٧-٣٤٨.

الشعري هذا المجال ذو النون المصري، وابن الفارض، والشريف الرضي، وأبو الحسن
الحصري، وفي العصر الحديث محمد مصطفى الماحي، وسيد قطب، وإبراهيم عزت،
ومحمود أبو الوفا، وعامر البحيري، وعزت شندی، وعبد الله شمس الدين، وعمر بهاء
الدين الأميري، وغيرهم.

وإذا كانت اللغة العربية نشأت في شبه القارة في أحضان المدارس الإسلامية، بإشراف
رجال الدين وعلماء الشريعة، فلا غرابة أن نرى فيها الحماسة الإسلامية، والنزعة الدينية.
بل إننا لو تصفحنا تاريخ الأدب العربي في الهند، وجدنا أن هذا النوع من الشعر قد
حظى بنصيب أوفر، واهتمام أكبر لدى الشعراء الهنود.

وفيما يلي النماذج:

يقول فضل حق بن فضل إمام:

ألا إنما الدنيا غرور وإنما	العظام عظام والقصور قبور
وقد رجت الأرضون والناس كلهم	سكاري حيارى والجبال تسير
أيا نفسي إن جمعت ذنوب ركبته	فلا تقنطى إن الإله غفور ^(١)

ويقول فيض الحسن السهانبوري واعظاً نفسه:

حان الرحيل ولا زاد وراحلة	ولا رفيق ولا ما كان منوياً
أذكر ضريحك إن ضعت فيه غدا	وذروا رءك طيب النوم منسياً
لا تعص ربك فيما قد أمرت به	فإن تكن عاصياً ألقيت معصياً
ولا تجالس أحاً إلا أحاً ثقة	في الخلق والخلق لا تلقى له سيا
وإدع الإله وقل رب اعف عن رجل	منى أثيم بعد البر سخرياً

ويقول عبد الحميد الفراهي (ت: ١٣٤٩ هـ):

أما للناس أحلام	أهم في السكر نوام
-----------------	-------------------

(١) مجموعة فضل حق، ص ٤٧.

وهم وارد حـوـض المـو
وريب الدهر يـبـيـرهم
فـحـبـل المـوت مـمـدود
وهم باللهـو واللـذا
وهم لآبـد مـحـشـور
عن النـعماء مـسـئـول
ويقول السيد ناصر الحسيني:

أيا غافلاً عن حديث النشور
إي أين أهل الوفا والتقى
ألا حول بيت الهوى لا تطف

ويقول أحمد بن مصطفى الكوباموى (ت: ١٢٣٤هـ):

ظلمت وكنت بين الظالمينا
أضعت العمر في كسب الخطايا
أطعت النفس حيناً بعد حين
أنخت النوق في ببيداء غى

ويقول السيد أحمد حسن الحسيني (ت: ١٢٧٧هـ):

ألا يا جالساً في كل نادى
أتيت مجالس البدعات طرا
وما من محفل الأحداث إلا
فويك يوم يؤخذ بالنواصى

(٢) نزهة الخواطر ٧/ ٤٩٣-٤٩٧.

(٤) إتحاف النبلاء، ص ٢٧٢.

(١) ديوان الفراهي، ص ٢-٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٧/٧.

ويقول المفتي محمد عباس التستري (ت: ١٣٠٦هـ):

أتتنا منايانا على حين غفلة	وقد طالما كنا نخوض ونلعب
فقليل لنا قوموا سراعاً وسافروا	فسرنا وما غير الجنائز مركب
فساروا بنا سيراً إلى دار وحشة	وظلماً وما فيها من سراج وكوكب
وكم ذات خضر ضامر تحت صخرة	لها أعين سود وكف مخضب
وكم طرى الجسم أصبح جيفة	وقد كان في شم الرياحين يرغب

ويقول القاضي طلا محمد (ت: ١٣٩٠هـ):

يا رب يا سيدي لا متهى أملى	مالى سواك لكشف الضر والضرر
يا ربنا إرحم على فقريومسكتنى	هب لى ذنوبى وابعدنى عن السقر
يا رب أكرم على عبد سهى وأسى	فى الذنب منغمس فى الإثم منغمر
فكم سهى فى مشيب العمر واجبه	وكم أسى فى شباب غير معتكر
أنت الغنى فلا يخشى احتياجك فى	شئ وأنت الغنى عنى وعن وزرى ^(١)

ويقول السيد مرتضى البلكرامى:

توكل على مولاك واخش عقابه	وداوم على التقوى وحفظ الجوارح
وقدم من البر الذى تستطيعه	ومن عمل يرضاه مولاك صالح
وأقبل على الفعل الجميل وبذله	إلى أهله ما سطعت غير مكالح
لا تسمح لأقوال من كل جانب	فلا بد من مثن عليك وقادح ^(٢)

يتضح من استقراء الأبيات المذكورة، أن بواعث الزهد والورع تختلف وتتنوع بحسب الأشخاص ومواقفهم من الحياة والناس، ومن ثم تنعكس على الشعر، فتعطيه طعماً ومضموناً موافقين لتلك البواعث، ومنسجمين مع هاتيك المواقف، والتصوير الأدبى فى تلك الأبيات لا تخلو صوره من الوجدان الروحى، الذى يقوم على النجوى

(١) نزهة الخواطر ٨ / ٢٠١.

(٢) إتحاف النبلاء، ص ٢٧٢.

القلبية في حب وإخلاص؛ ابتغاء مرضاة الله عز وجل، وشكرًا لنعمه التي لا تُحصى، واستغفارًا من الذنوب والمعاصي، كما يكون -أحيانًا- بدافع الرهبة والخشية من الموت، لاسيما وقت الشيخوخة.

سادسًا: الفخر

هو من أخص صفات العرب ومن أوسع الأبواب في شعرهم، والفخر بالقبيلة والأحساب وكذلك بالكرم والشجاعة سمة لازمة للعرب منذ القدم، وكانت مبعث فخرهم وزهورهم على مر العصور.

والفخر قديم في الآداب العالمية، إلا أنه يحتل في الآداب العربية منزلة خاصة، حتى لا نكاد نجد شاعرًا جاهليًا يخلو ديوانه من أبيات ومقطوعات في التفاخر، يمتدح فيها الشاعر مناقبه ويعدد مآثره ويشيد بما تتحلى به قبيلته من صفات ويمتاز به قومه من فضائل.

وأجمل الفخر ما صدر عن صدق عاطفة، وحقيقة واقعة، وأبقاه ما ابتعد عن المغالاة، واشتمل على قيم إنسانية رفيعة ومثل حضارية جلية.

وفي الديوان الشعر العربي على مر العصور واختلاف البيئات آيات من الفخر رائعات، تهب بالقارئ إلى اعتناق مثلها وبلوغ مقاصدها، لكن يبدو أن هذا النوع من الشعر لم يكن شائعًا بين الشعراء في شبه القارة كأنواع أخرى، إلا أن بعضهم أنشدوا في هذا الباب أيضًا. وهاك الأمثلة:

يقول فيض الحسن السهاربنورى:

سَلِ النَّاسَ بِي كُلِّ دَانٍ وَقَاصِ	تَجِدُنِي ذَوَابَةَ قَوْمٍ حِرَاصِ
عَلَى بَذْلِ مَا فِيهِمْ مِنْ خُلُوصِ	وِإِتْلَافِ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ خِلَاصِ
وَمَا زَالَ مِنْهُ كَرِيمٌ جَوَادِ	يَجُودُ عَلَى الْمُجْتَدِي كَالنَّشَاصِ
وَنُظْمِنُ بِالرَّمْحِ تَحْتَ التَّرَاقِي	وَنَضْرِبُ بِالسَّيْفِ فَوْقَ الْقَصَاصِ
تَرَى بَيْنَنَا كُلَّ غَمٍّ كَمِّى	عَلَى كُلِّ نَهْدٍ شَدِيدِ شَنَاصِ

ففينا ومنا كمة حماة ومن لا ييالي بيوم عصاص
إذا ما رأى بأسنا من أئانا يفر على ماله من حصاص^(١)

ويقول أحمد بن مصطفى الكوبامؤى (ت: ١٢٣٤هـ):

أما تدرى بآبائي وربى أولئك أهل مجد واحترام
صوارمهم حتوف للأعداى أياديهم حياة المستهام
ولاة فى بلاد العز جما حماة للجنة عن الفرام^(٢)
ويقول يوسف الخانبورى:

سلى يا سلى كل ذى المجد عن ذكرى أذو شرف مثلى عهدت بذا القطر
أخو الهمة العليا أصيل مكرم ولى عهد المكرات مع الفخر
شديد على أهل الضلال غائظ وبين أصحاب الهداية ذو البر
صبور على البأساء والضر التوى وليس على رزء المذلة ذا صبر
وأباؤنا من أشرف القوم سادة كرام أولى المجد المؤثر والذكر^(٣)

وهكذا نجد هذا النوع من الشعر فى دواوين بعض الهنود، يعرض فيها الشاعر نواح شتى من كرمه وجوده، وحسن لقائه للضيوف والأقارب والأصدقاء، كما نجد بعضهم يفخرون بالحسب والنسب والمروءة والكرامة، وأحياناً بالشجاعة والقوة وعدم الخضوع لأى نوع من أنواع الضغوط مهما كانت الظروف.

سابعاً: الهجاء

هو غرض من أغراض الشعر، يقوم على تقييح صورة فرد أو جماعة، أو عادة من العادات، أو مظهر من مظاهر الحياة والوجود.

(١) ديوان الفيض، ص ٧٦.

(٢) نزهة الخواطر ٧/ ٣٧.

(٣) نزهة الخواطر ٨/ ٥٢٧.

والهجاء تعبير عن احتقار الشاعر للمهجو، والرغبة في الخط من شأنه، والهزء به ومسخه ما أمكن إلى ذلك سبيلاً.

والهجو من موضوعات الشعر العربي في جميع عصوره، طرقة شعراء الجاهلية في مقابل المدح والفخر، وكان أشهر الهجائيين في الجاهلية الحطيئة (ت: ٥٩هـ - ٦٧٩م) الشاعر المتشرد الذي كان يمدح من أناله ويهجو من رده، وقد بلغ من إدمانه الهجو أن هجا نفسه بقوله:

أرى لى وجهاً شوه الله خلقه فقيح من وجه وقبح حامله

واتخذ الهجاء في صدر الإسلام وجهة تحزبية طائفية، ثم اتسع نطاقها في العصور اللاحقة، حتى أصبح لكل حزب ولكل فئة شعراء يهجون مهاجمين ويمدحون مدافعين، فضلاً عن ازدهار الهجاء الفردي، الذي استعر بين الشعراء أنفسهم، وعرف كلا اللونين الإفداع في الكلام، ولم يتورع شعراء كالأخطل والفرزدق وجريير عن القذف والسباب ونهش الأعراس دون وجل أو حياء، كما لم يتردد شعراء النزاع الحزبي والشعوبي عن هتك الأستار ونشر المعاييب والمثالب.

أما في الهند، فلا نجد شاعراً هجا شخصاً بعينه، من الشعراء الذين قرضوا الشعر باللغة العربية، إلا أننا نجد شاعراً واحداً هجا البلدة التي أقام بها في آخر عمره، حيث لم يعجبه أهلها وجوهاً فهجاها وذمها ذمّاً شديداً يقول:

لقد حللت على بالي وبالي	بلدة ما بها عمى ولا خالي
بلدة لا ترى فيها فتى كملت	جيرانه وجليسا ناعم البال
بلدة قد خلت عن كل مكرمة	وهل سمعتم بمصر فارغ خال
بلدة ما بها مجد ومأثره	وما بها من كريم النفس مفضل
إلا كلاب وثيران وأحمره	ومن يماثلها من دون أمثال
ويلمها دار سوء دار منقضة	سكانها شر أرزال وأنذال

قوم لهم كل مخبزة ومنقصة وكل ذم وعار خلف إذلال^(١)

وبعد سرد أنواع من الشعر ونماذجه، يتضح لنا أن الشعراء الهنود نظموا في معظم أبواب الشعر، وأضافوا إلى الشعر العربي كمًا كبيرًا من الأبيات والقصائد، كما أن محاولتهم في هذا المجال محاولة لا بأس بها؛ لأنهم ليسوا عربًا، وإنما نشأوا في بيئة أعجمية وتعلموا اللغة العربية عن مثلهم من الأعاجم.

* * *

(١) ديوان الفيض، ص ٥٤-٥٥.